أنا ذلك الذي...

إلى خوسي انريكي رودو

أنا الذي لم يكن بالأمس يقول أكثرَ
من الشعر الأزرق،
والأغنية اللادينية،
أنا من كان في ليله عندليباً بلبلاً
بعد أن كان قنبرة ضوء في الصباح.

كان سيدَ حديقة حلمي،
المليئةُ بالأزهار والبجعات الكسالى،
سيدَ اليمامات، سيدَ
الجنادل وقيثارات البحيرات.

وفي أعماق القرن الثامن عشر،
في القِدم،
وفي الحداثة، حاد ومدني،
قوي مع "هوجو" وغامض مع "فيرلين"[15]،
وبه عطش لأحلام لا تنتهي.

عرفت الألم منذ طفولتي،
وشبابي.. هل كان شبابي شباباً؟
لا تزال أزهاره تترك لي روائحها،
رائحة من الجنون...

مهرٌ بلا ضوابط أنطلق داخلي،
أقام شبابي مهراً بلا ضوابط،
انطلقَ سكيراً والسكين في الحزام،
وإن لم يسقط، ذلك لأن الله لطيفٌ.

---

[15]– فيرلين: الشاعر الفرنسي "بول فيرلين"

شوهد في حديقتي تمثال جميل،
أكدوا أنه من الجرانيت،
لكنه كان جسداً حياً،
وتسكنه روحٌ مفعمةٌ،
جياشةٌ، وحساسةٌ، وشهوانيةٌ.

وخجولةٌ في مواجهةِ العالم،
كانت منغلقةً في صمتها لا تغادره
سوى في الربيع الحلو،
لقد كانت ساعة التآلف...

إنها ساعةُ الغروب والقبلةُ السرية،
اللحظةُ الشفقية، ولحظةُ الاستكانة،
لحظةُ الغزل والفتنة،
لحظةُ "أعشقك" و"آي" والتنهيد.

وحينها كانت في القيثارة لعبة
من تراكيب بللورية،

تجديد لألحان "بان" الإغريقي،
وتفكيك الموسيقى اللاتينية.

في مناخ كهذا واشتعال خيل،
وُلِدت في التمثال فجأة،
في الجسد الحيوي ساقا عنز،
وقرنان في الجبهة.

كآسيوي،
وسحرني "ماركيز" و"فيرلين"،
وهكذا جمعت إلى التشبب الإلهي
شهوانية بشرية مفعمة.

كل الشوق، كله تحرّقٌ، إحساسٌ صاف،
وقوةٌ طبيعيةٌ، دون تزييف،
ودون سخرية، ودون مبالغة أدبية...
لو كانت هناك روحٌ جادة،
تكون هذه روحي.

البرج العاجي داعب رغبتي،
أردتُ أن أُسجنَ داخل نفسي،
وأصابني جوعُ الفضاء وعطشُ السماء،
من ظلال جهنمي الخاص،
كالإسفنجة التي أغرقها الملح
في لعبة البحر،
لقد كان جميلاً ورقيقاً.
يا قلبي، ننتفخ بالمرارة
من أجل العالم، والجسد والجحيم.

بفضل الله، عرف الخيرُ أن يختارَ
أفضلَ مكانٍ في وعيي،
وإن وُجدَ جليداً جافاً في وجودي،
فقد منح الفنَ حلاوته.

وتجنبتْ ثقافتي الفكر المنحط،
وغمرتْ المياهُ روحي،
أسكرَ قلبي وأتى
تناغم الغابة المقدسة.

أوه، الغابة المقدسة!، أوه، المغناطيس
العميق لقلبي الإلهي،
من الغابة المقدسة، أوه، النافورة
الخصبة التي تهزم فضائلها القدر.

أبحثُ عن المثال لأن الواقعَ يتعقدُ،
هناك يتحرق الجسد ويعيش ويطير،
فيما هناك في الأسفل، يتدنسُ الوحشُ،
يسكرُ "فيلوميلا"[16] بالأزرق المذاب.

لؤلؤةُ الأحلام وموسيقى عشقٍ
في قمة زهرة غار خضراء،
وامتصاصُ في الوردة،
وبحثاً عن العشب يقضم الحلمة.

---

[16]– فيلوميلا: أميرة شهيرة ابنة "باندیون" ملك أثينا، وشقيقة "بروكني" زوجة تريو"، بطل تراثيا، اغتصبها زوج شقيقتها وحتى لا تشي به قطع لسانها، فقامت بتوشية حكايتها على سجادة وأرسلتها هدية إلى شقيقتها، التي انتقمت من زوجها بقتل ابنها "ايتيس" وقدمته طعاما لزوجها، وعندما علم بما حدث قام بتتبع الشقيقتين للانتقام منهما، لكن الآلهة تدخلت وحولت "بروكني" إلى قبرة، فيما شكلت "فيولميلا" إلى عصفور مغني

وهناك يتبعُ الإله الهائج الأنثى،
وترتفعُ حربة "بان" جانباً،
وتُلقي الحياةُ الأبديةُ بذورَها،
وينبعُ تناغمُ الجمع الأكبر.

على الروحِ أن تدخلَ هناك عاريةً،
ترتعشُ بالرغبةِ والحمى المقدسة،
فوقَ حراشفَ الوريثِ والشوكةِ الحادة:
هكذا تحلمُ، وهكذا ترتعشُ، وهكذا تغني.

حياةٌ، ونورٌ وحقيقةٌ،
إنها الشعلةُ الثلاثية،
تشعلُ اللهبَ الداخلي اللانهائي.
يصرخُ الفنُ الصافي كما المسيح:
(أنا النور، والحقيقة والحياة)[17]

[17]– إشارات منقولة عن المسيح في انجيل يوحنا

الحياةُ سرٌ، والنورُ أعمى،
وتدهشُ الحقيقةُ التي لا طريق إليها،
والإتقانُ المطلقُ لا يستسلمُ أبداً،
وينامُ السرُ المثالي في الظل.

لهذا أن تكون جاداً هو أن تكون قوياً،
فالنجمةُ تلمعُ رغم عريها،
ويقول الماءُ لروحِ النافورةِ،
وفي صوتها الزجاجي ينبعُ منها.

هذه كانت محاولتي، لخلق الروح الصافية،
روحي، نجمةٌ، نافورةٌ تنطقُ
برعبِ الأدب،
وجنونِ الشفق والفجرْ.

بالشفق الأزرق الذي يمنحُ الراحةَ،
التي يستلهمها الطربُ السماويُ،
ضباباً أخفُ من الصدى- كل الناي
والفجر وابنة الشمس- كل القيثارة.

مرَّ حجرٌ ألقت به موجة،
مرَّ سهمٌ ألقاه شخص عنيف،
حجرُ الموجة ذهبَ إلى الموجة،
وسهمُ الكراهية ذهبَ مع الريح.

الفضيلةُ في الهدوءِ والقوة،
وكلُ شيءٍ يحترقُ بالنارِ الداخلية،
تنتصرُ النميمةُ والموتُ،
وتمرُ القافلةُ... نحو بيت لحم.

(أناشيد الحياة والأمل، باريس 1905)